مسائل لغوية بين ابن القيم ولغويين

قدامى ومتأخرين

د حازم طه

كلية الآداب / جامعة الموصل

عرف ابن قيم الجوزية أنه إمام من أئمة الفقه الأسلامي وأصوله ، يحتج المعنيون بهذا اللون من العلم والمعرفة بآرائه ، وقد يبدو غريباً حين نعرف أن له آراء بارعة ، وبحوثاً متميزة في اللغة مبثوثة في مؤلفاته .

وقد لفت نظري ملاحظ له لآى من القرآن الكريم تدلّ دلالة قوية على تمكنه من ناحية اللغة ، وحسن ذوقه . فهو حين يعرض لمبحث من المباحث في اللغة يورد آراء المفسرين أو النحاة فيه ، ثم يورد مآخذه على أقوالهم ، مبيناً وجهة نظره ، ومن هنا جعلت البحث عنه ، وآثرت أن يكون عنوانه (مسائل لغوية بين ابن القيم ولغويين : قدامى ومتأخرين) ونسوق بعض المباحث اللغوية التي تناولها ابن القيم الجوزية لنوضح الرأي الذي أدلى به بين الدلاء .

وجه تذكير خبر رحمة الله في :

قوله تعالى : — (انّ رحمة الله قريب من المحسنين) (٢) .

---

(١) هو ابو عبدالله شمس‌الدين محمد بن ابي بكر بن ايوب بن سعد الدمشقي .
ولد في صفر سنة ٦٩١هـ . وتوفي سنة ٧٥١هـ ، وكان عالماً فقيهاً مفسراً محدثاً اصولياً وقد خلف مؤلفات عديدة ، منها : اعلام الموقعين عن رب العالمين ، وبدائع الفوائد ومدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين ، والجيوش الاسلامية .....
انظر بغية الوعاة ٦٢/١ ، ٦٣ وشذرات الذهب ١٨٦/٦ .

(٢) سورة الاعراف . رقم الآية ٥٦ .

لقد اختلفت أئمة اللغة والمفسرون في وجه تذكير خبر رحمة الله . وسنبسط آراءهم مبينين وجهات نظرهم ، ثم نعقب بما نرى انه الوجه السديد الجدير بالاختيار مع بيان علة الأختيار . وقد تتبعنا مااستطعنا اليه سبيلا من الآراء مؤثرين ايرادها مرتبة ترتيباً زمنياً.

« الفـــرآء ٢٠٧ هـ »

قال : ذكرت قريبا لانه ليس بقرابة في النسب .

ورأيت العرب تؤنث القريبة في النسب لايختلفون فيها ، فاذا قالوا : دارك منا قريب ، او فلانة منك قريب في القرب والبعد ذكروا وانثوا ، وذلك ان القريب في المعنى وان كان مرفوعا ، فكانه في تأويل : هي من مكان قريب فجعل القريب خلفا من المكان كما قال الله تبارك وتعالى (وما هي من الظالمين ببعيد) (١) . وقال : (وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) (٢) ، ولو أنث ذلك فبنى على بعدت منك فهي بعيدة وقربت فهي قريبة كان صواباً حسناً . وقال عروة : (٣)

عشيـــة لاعفـراء مـنك قريـبـة فتـدنـوا ولاعفـراء مـنـك بعـيـد

ومن قال بالرفع وذكر لم يجمع قريباً ولم يثنه . ومن قال : ان عفراء فيك قريبـة أو بعيدة ثنى وجمع (٤) .

فرد عليه الزجاج قائلا : هذا غلط ، بل كل ماقرب من مكان او نسب فهو جائز التأنيث والتذكير (٥) .

« أبو عبيـدة ٢١٠ هـ »

وقال أبو عبيدة : (ان رحمة الله قريب من المحسنين) هذا موضع يكون في المؤنثة والثنتين والجمع منها بلفظ واحد ولايدخلون فيها الهاء ، لأنه ليس بصفة ولكنه ظرف وموضع . والعرب تفعل ذلك في قريب وبعيد . قال : (٦)

(١) سورة هود : رقم الآية ٥٦ .
(٢) سورة الاحزاب : رقم الآية ٦٣ .
(٣) هو عروة بن حزام العذري (هامش معاني القرآن للفراء)
(٤) الفراء . معاني القرآن ١/٣٨٠ – ٣٨١ .
(٥) الطبرسي ، مجمع البيان ٤/٤٢٩ .
(٦) لم اقف على قائله .

فان تمس ابنة السهمي منا بعيداً لانكلمهما كلاما (١)

الاخفش الاوسط ٢١٠ هـ

أما الاخفش الاوسط فقد قال : فذكر (قريب) وهو صفة الرحمة ، وذلك كقول العرب « ريح طريق «و ملحقة جديد» ، وشاة سديس .

وان شئت قلت :« تفسير الرحمة» هاهنا (المطر ونحوه) فلذلك ذكر كما قال : (وان كان طائفة منكم آمنوا) (٢) فذكر لأنه اراد « الناس ».

وان شئت جعلته كبعض مايذكرون من المؤنث ، كقول الشاعر (٣)

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض ابقال ابقالها (٤)

ورد عليه الالوسي قائلا : ان الرحمة التي هي المطر ، لاتختص بالمحسنين لان الله سبحانه يرزق الطائع والعاصي ، ولو قلت مطر الله قريب لوجدت هذه الاضافة مما تمجها الأسماع وتنبو عنها الطباع بخلاف ان رحمة الله قريب ، وانما المختص في عرف النوع هو الرحمة التي هي الغفران والتجاوز والثواب . (٥)

الانباري (٣٢٨)

اما الانباري فقد قال : ذكر (قريباً ، يجوز ان يكون ذكّره على معنى ان فضل الله ، قريب .

وقال الاخفش : هو محمول على معنى ان مطر الله قريب(٦)

« النحاس ٣٣٨هـ»

اما النحاس فقد اتى بستة اراء مشيراً الى احسنها فقال : ومن احسنها : ان الرحمة والرحم واحد ، وهي بمعنى الغفر والغفران . كما قال زياد الاعجم .

---

(١) ابو عبيدة . مجاز القرآن ٢١٦/١ .
(٢) سورة الاعراف . رقم الآية ٨٧ .
(٣) هو عامر بن جوين الطائي .
(٤) الأخفش ، معاني القرآن ، دراسة وتحقيق عبدالامير الورد ، رسالة دكتوراه مطبوعة بالرونيو .
(٥) الالوسي . روح المعاني ٥٢١٣ .
(٦) الانباري . المذكر والمؤنث ص ٤٦٢ .

ان السماحة والمروءة صمنا قبراً بمرو على الطريق الواضح

قيل : اراد بالسماحة السخاء ، وبالمرؤة الكرم .

وقال : ويجوز ان يكون هذا على النسب ، كما قيل : امرأة طالق وحائض (١)

و هذا الرأي الذي استحسنه لم نجده فيمن ذكرناهم سابقاً من الباحثين في الدراسات ، القرآنية .

«الطوسي ٤٨٠هـ»

واما الطوسي ، فقد عرض رأي الفراء ، ثم اعقبه برأي الزجاج « بين فيه ان الزجاج وقف معارضاً لرأي الفراء . ولم نره يفصل بين الرأيين بكلمة، بل اكتفى بعرضهما . (٢)

«الزمخشري ٥٣٨هـ»

وجعل الزمخشري (٣) الآية من قبيل قوله تعالى (واني لغفار لمن تاب وعمل صالحاً) أي علق فيها الرحمة باحسان الاعمال . كما علق الغفران فيه بالتوبة والايمان والعمل الصالح .

«الطبري ٥٤٨هـ»

قال : والوجه في تذكيره هنا ، ان الرحمة والغفران والعفو في معنى واحد ، وكذلك كل تأنيث ليس بحقيقي .

ثم قال : وقال الاخفش : جائز ان يكون اراد بالرحمة هنا « المطر » فلذلك ذكره ومثله قول الشاعر : (٥)

يـاأيـها الـراكب المزجـي مطيـتـه سائـل بـنـي اسـد مـاهذه الـصـوت

أي ، ماهذه الصيحة . وقول الآخر : (٦)

---

(١) النحاس ، اعراب القرآن ٦١٩/١٠ .
(٢) الطوسي ، التبيان في تفسير القرآن ٤٢٦/٤ .
(٣) الزمخشري ، الكشاف ١١٠/٢ .
(٤) سورة طه ، رقم الآية ٨٢ .
(٥) هو روشيد بن كثير الطائي .
(٦) هو زياد الاعجم .

ان السماحة والمرؤة صمنا قبرا بمرو على الطريق الواضح (١)

وتأويل الرحمة بمعنى المطر هو احتمال واه بعيد لانسلم به ، وقد أبان الزمخشري السبب بقوله لان رحمة الله هي الغيث واثرها النبات . (٢)

«الرازي ٦٠٦هـ»

«القرطبي ٦٧١هـ»

اما الرازي والقرطبي فانهما أوردا آراء من سبقهما ولم يرجحا رأيا على آخر (٣)

«أبو حيان أ٧٤٥هـ»

أورد ابو حيان آراء من سبقه ايضاً ، بيد انه اورد رأياً لم يرد عندهم وهو معنى « قريبة الثواب » ونسبة الى جبير (٤)

«أبو السعود ٨٨٦هـ»

أضاف الى ماورد من آراء رأياً اخر ، وهو تذكير قريب لاكتساب التذكير من المضاف اليه ، كما ان المضاف يكتسب التأنيث من المضاف اليه »(٥) .

ان العرب تعطي المضاف حكم المضاف اليه في التذكير والتأنيث اذا صحّ الاستغناء عنه ، وهو امر مشهور ، فالرحمة لاضافتها الى الاسم الجليل قد اكتسب ماصح الاخبار عنها بالمذكر .

قال الروذراودي : ان اكتساب التأنيث في المؤنث قد صح بكلام من يوثق به .

واما العكس فيحتاج الى الشواهد ، ومن ادعى الجواز فعليه البيان . (٦)

«الألوسي»

وذهب الالوسي الى ان ذلك على حذف مضاف ، أي مكان رحمة الله قريب . فالاخبار انما هو عن المكان ، وهو مذكر ، ونظير ذلك قوله صلى الله عليه وسلم مشيراً الى الذهب والفضة « ان هذين حرام » فان الاخبار بالمفرد ، لان التقدير : ان استعمال هذين . وقول حسان : (٧) .

---

(١) الطبرسي ، مجمع البيان ٤٢٩/٤ .
(٢) انظر الكشاف ١١٠/٢ .
(٣) الرازي ، التفسير الكبير ٩٣٧/١٤ ، القرطبي ، احكام القرآن ٢٢٧/٧ .
(٤) أبو حيان ، البحر المحيط ٣١٢/٤ .
(٥) تفسير ابي السعود ١٧٠/٢ .
(٦) انظر ، روح المعاني ٥٢/٣ .
(٧) هو حسان بن ثابت ,

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

فانه بتقدير : (ماء بردى) فلذا قال يصفق بالتذكير مع ان بردى مؤنث (١) وقبل ان نورد رأي ابن القيم ينبغي لنا ان نشير اليه في هذا الصدد . اننا اعتمدنا. في طلب هذه الغاية أي وجه تذكير رحمة الله — متون المعاجم اللغوية فخرج لنا من كل اولئك ما أنا مورده

قال ابن منظور في مؤلفه (٢) : فانما ذكر على النسب وكأنه اكتفى بذكر الرحمة عن الهاء : وقيل : انما ذلك لأنه تأنيث غير حقيقي . وهذا رأي لاينفع في هذا المقام غليلا بعد هذا نعود الى ابن القيم .

اما ابن قيم الجوزية فقد اورد رأيين (٣) :

الاول :

انهذا من باب الاستفتاء بأحد المذكورين عن الاخر لكونه تبعاً له ،ومعنى من معانيه فاذا ذكر أغنى عن ذكره لانه يفهم منه . ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى (ان نشأ ننزّل عليهم من السماء آية فظلت اعناقهم لها خاضعين) (٤) فاستغنى عن خبر الاعناق بالخبر عن اصحابها . (٥)

---

(١) الالوسي ، روح المعاني ٣/٥٠ ، ٥١ .

(٢) ابن منظور لسان العرب ١٢/٢٣٠ .

(٣) ابن القيم / بدائع الفوائد ٣/١٣ .

(٤) سورة الشعراء رقم الآية ٤ .

(٥) أورد ابو حيان اراء ما قيل في تخريج هذه الآية فقال : قال الزمخشري فان قلت كيف صح مجيء خاضعين خبراً عن الاعناق ، قلت اصل الكلام فظلوا لها خاضعين فاقتحمت الاعناق موضع الخشوع وترك الكلام على اصله كقولهم : ذهبت اهل اليمامة ، كان الاهل غير مذكور. وقال مجاهد وابن زيد الأخفش : جماعاتهم ، يقال : جاءني عنق من الناس ، اي جماعة وقيل اعناق الناس : رؤساؤهم ومقدموهم ، شبهوا بالاعناق ، كما قيل : « لهم الرؤس والنواصي والصدو » قال الشاعر :

«في محفل من نواصي الخيل مشهود»

وقيل : اريد الجارحة

وقال عيسى : على حذف مضاف ، أي اصحاب الاعناق ، وروعي هذا المحذوف في قوله خاضعين حيث جاء جمعاً للمذكر العاقل وضعه فأخبر عنه اخباره كما يكتسي المذكر التأنيث من اضافته إلى المؤنث في نحو كما شرقت صدر القناة من الدم .

أولا حذف ولكنه لما وضعت لفعل لا يكون الا مقصوداً للعاقل وهو الخضوع جمعت ، كما جاء «أتينا طائعين» (البحر المحيط ٧/٥ ، ٦) .

ومنه في أحد الوجوه قوله تعالى « والله ورسوله احق ان يرضوه) (١) .

والمعنى والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك. فاستغنى باعادة الضمير الى الله، اذ ارضاؤه هو ارضاء رسوله فلم يحتج ان يقول « بضمهما» فعلى هذا يكون الاصل في الاية (ان الله قريب من المحسنين) فاستغنى بخبر المحذوف عن خبر الوجود ، وسوغ ذلك ظهور المعنى.

وهذا المسلك مسلك حسن اذا كسي تعبيراً أحسن من هذا ، وهو مسلك لطيف المنزع دقيق على الافهام وهو من أسرار القرآن.

والذي ينبغي ان يعبر عنه به ، ان الرحمة صفة من صفات الرب تبارك وتعالى ، والصفة قائمة بالموصوف لاتفارقه ، لان الصفة لاتفارق موصوفها فاذا كانت قريبة من المحسنين فالموصوف تبارك وتعالى بالقرب منه ، بل قرب رحمته تبع لقربه هو تبارك وتعالى من المحسنين .

فالرب تبارك وتعالى قريب من المحسنين، ورحمته قريبة منهم ، وقربه يستلزم قرب رحمته ، ففي حذف التاء ههنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة ، وان الله تعالى قريب من المحسنين . وذلك يستلزم القربين قربه وقرب رحمته ، ولو قال ان رحمة الله قريبة من المحسنين ، لم يدل على قربه تعالى منهم ، لان قربه تعالى أخص من قرب رحمته ، والأعم لايستلزم الاخص بخلاف قربه ، فانه لما كان اخص استلزم الاعم ، وهو قرب رحمته ، فلا تستهين بهذا المسلك فان له شأنا وهو متضمن لسر بديع من اسرار القرآن .

الثاني :

---

(١) سورة التوبة . رقم الآية ٦٢ .

اورد ابو حيان اراء ما قيل في تخريج هذه الآية فقال : قال ابن عطية : مذهب سيبويه انهما جملتان حذفت الأولى لدلالة الثانية عليهما ، والتقدير عنده ، والله احق ان يرضوه ورسوله احق ان يرضوه .

ومذهب المبرد ان في الكلام تقديماً وتأخيراً ، وتقديره «والله احق ان يرضوه ورسوله والذي نقوله — اي ابو حيان — انه لما كانت طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة لله كما قال (من يطع الرسول فقد اطاع الله) صار لذلك متلازمين كالشيء الواحد ، فأخبر عنهما أخبار الواحد ، فافرد الضمير كما قال الشاعر :

«بها العينان تنهل» .

ولم يقل «تنهلان» ، وقالت : يوم وليلة مربي ، تريد مرابي ، فافرد الضمير لتلازمهما (الدر اللقيط : حاشية البحر المحيط ٥/٦٣) .

وان شئت قلت : قربه تبارك وتعالى من المحسنين ، وقرب رحمته منهم متلازمان لا ينفك احدهما عن الاخر ، فاذا كانت رحمته قريبة منهم فهو ايضاً قريب منهم . واذا كان المعنيان متلازمين صح ارادة كل واحد منهما فكان في بيان قربه سبحانه من المحسنين من التحريض على الاحسان واستدعائه من النفوس ، وترغيمها فيه غاية حظ لها ، واشرفه واجله على الاطلاق ، وهو افضل اعطاء اعطيه العبد ، وهو قربه تبارك وتعالى من عبده الذي هو غاية الأماني ونهاية الامال ، وقرة العيون ، وحياة القلوب ، وسعادة العبد كلها ، فكان في العدول عن قريبة الى قريب من استدعاء الاحسان وترغيب النفوس فيه

بعد ان بسطنا آراء ائمة اللغة والمفسرين في وجه تذكر «قريب» (واختلافهم فيه ،وانهم لم يتفقوا على رأي واحد نرى ان الرأي السديد ، هو ماأورده ابن القيم الجوزية ، وهو استغناؤه بخبر المحذوف عن خبر الموجود وسوغ ذلك ظهور المعنى ، وهو ملحظ دقيق له وجاهته ، وله شواهد تؤيده .

وانطلاقاً من هذا الملحظ نقول ، لانكران ان العرب كانت تعرف شيئاً من الحذف في كلامها وترى ذلك من الفضيلة البيانية متى كانت الدلائل على ذلك المحذوف ولو كان من اجزاء الجملة ومقوماتها . واني لأسوق آيات من القرآن الكريم لانه قد اجتمع فيه مالم يجتمع في غيره ، فانه الدليل والمدلول عليه .

من ذلك قوله تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) (١)

ظاهرة الآية ان « مبصرة » وصف للناقة ، وعلى هذا يكون المراد ان الناقة لم تكن عمياء ، وهي على هذه الصفة لاتعد آية من آيات الله لنبيه . لانها ناقة قد برئت من العمى .

وقوله تعالى في آية ثانية (هذه ناقة الله لكم آية) (٢) .

وقوله تعالى في آية ثالثة (وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا اية الليل و جعلنا أية النهار مبصرة) (٣)

ومن نظر في هذه الايات وتدبرها حق التدبر اوجب له تدبره ان في الاية الكريمة حذفاً ، وتأويل الاية يكون (واتينا ثمود الناقة آية مبصرة) ومن بديع ذلك قوله عز وجل

---

(١) سورة الاسراء آية ٥٩ .
(٢) سورة الأعراف رقم الآية ٧٣ .
(٣) سورة الاسراء رقم الآية ١٢ .

(ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لانسقي حتى يصدر الرّعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى الى الظل قال ربّ اني لما أنزلت الي من خير فقير) (١)

فان في هاتين الايتين حذف المفعول به في اربعة أماكن ، اذ المعنى وجد أمة من الناس ، يسقون مواشيهم ، وامرأتين تذودان مواشيهما ، وقالتا لانسقي مواشينا فسقى لهما مواشيهما.

لان الغرض ان يعلم انه كان من الناس سقى . ومن الامرأتين ذود وأنهما قالتا لايكون منا سقي حتى يصدر الرعاء ، وانه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقي (٢)

وهذه طريقة القرآن ، ان يذكر الشيء في موضع ثم يحذفه في موضع آخر لدلالة المذكور على المحذوف .

فيما يتصل بمعنى كاد في
النفي والأثبات في الاية الكريمة :

قال الله تبارك وتعالى (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب ، أوكظلمات في بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور) (٣)

نرى ابن قيم الجوزية يقف وقفة طويلة امام كلمة «(كاد) ومالها من معان ان كانت منفية اوغير منفية ، وقبل ان يورد رأيه يورد آراء النحويين في ذلك فيقول (٤):

فقال كثير من النحاة (٥) : هو نفي لمقاربة رؤيتها : وهو أبلغ من نفيه الرؤية وانه قد ينفي وقوع الشيء ولاينفي مقاربته . فكأنه قال : لم يقارب رؤيتها بوجه . قال هؤلاء «كاد» من افعال المقاربة ، لها حكم سائر الافعال في النفي والاثبات ، فاذا قيل كاد يفعل فهو اثبات مقاربة الفعل ، فاذا قيل : لم يكد يفعل ، فهو نفي لمقاربة الفعل .

(١) سورة القصص رقم الآية ٢٣ .
(٢) ابن الأثير ، المثل السائر ٢/٩٧ .
(٣) سورة النور رقم الآية ٣٩ ، ٤٠ .
(٤) ابن القيم ، التفسير القيم ص ٣٨٣ .
(٥) انظر شرح الاشموني ١/٤٦٦ .

وقالت طائفة اخرى (١) بل هذا دال على انه انما يراها بعد جهد شديد وفي ذلك اثبات رؤيتها بعد اعظم العسر ، لاجل تلك الظلمات . قالوا : لان « كاد» لها شأن ليس لغيرها من الافعال ، فانها اذا اثبتت نفت ، واذا نفت اثبتت ، فاذا قلت ماكدت اصل اليك فمعناه : وصلت اليك بعد الجهد والشدة . فهذا اثبات للوصول . واذا قلت كاد زيد يقوم ، فهي نفي لقيامه كما قال تعالى (وانه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا)(٢) ومنه قوله تعالى (وان يكادوا الذين كفروا ليزلقونك بابصارهم لما سمعوا الذكر (٣) وانشد بعضهم في ذلك لغزاً :

أنحوى هذا العصر : ماهي لفظة جرت في لسان جرهم وثمود
واذا استعملت في صورة النفي أثبتت فان أثبتت قامت مقام جحود

وقالت فرقة ثالثة : (٤) ان استعمالها مثبتة يقتضي نفي خبرها ، كقولك كاد زيد يقوم واستعمالها منفية يقتضي نفيه بطريق الاولى . فهي عنده تنفي الخبر ، سواء كانت منفية أو مثبتة ، فلم يكد زيد يقوم أبلغ عنده في النفي من لم يقم . واحتج بانها اذا نفيت وهي من افعال المقاربة فقد نفت مقاربة الفعل ، وهو أبلغ من نفيه واذا استعملت مثبتة فهي تقتضي مقاربة اسمها لخبرها . وذلك يدل على عدم وقوعه .واعتذر عن مثل قوله تعالى ، (فذبحوها وماكادوا يفعلون) (٥) . وعن مثل قوله : وصلت اليك وماكدت اصل ، وسلمت وماكدت أسلم . بأن هذا وارد على كلامين متباينين ، أي فعلت كذا بعد ان لم اكن مقارباً له ، فالأول يقتضي وجود الفعل ، والثاني يقتضي انه لم يكن مقارباً له ، بل كان آيسا منه فهما كلامان مقصود بهما امران متباينان .

وذهبت رقة رابعة (٦) : الى ان الفرق بين ماضيها ومستقبلها.فاذا كانت في الاثبات فهي لمقاربة الفعل . سواء كانت بصفة الماضي او المستقبل ، وان كانت في طرف النفي فان كانت بصيغة المستقبل كانت لنفي الفعل ومقاربته ،نحو قوله تعالى (لم يكد يراها) (٧)

---

(١) انظر هامش الاشموني ٤٦٧/١ .
(٢) سورة الجن رقم الآية ١٩ .
(٣) سورة القلم رقم الآية ٥١ .
(٤) انظر دلائل الاعجاز ص ١٨١ .
(٥) سورة البقرة رقم الآية ٧١ .
(٦) انظر هامش الاشموني ٤٦٨/١ .
(٧) سورة النور رقم الآية ٤٠ .

وان كانت بصيغة الماضي فهي تقتضي الاثبات نحو قوله (فذبحوها وما كادوا يفعلون) فهذه اربعة طرق للنحاة في هذه اللفظة .

قال ابن قيم الجوزية :

والصحيح : انها فعل يقتضي المقاربة ولها حكم سائر الافعال ، ونفي الخبر لم يستفد من لفظها ووضعها . فانها لم توضع لنفيه . وانما استفيد من لوازم معناها ، فانها اذا أقتضت مقاربة الفعل لم يكن واقعاً فيكون منفياً باللزوم اما اذا استعملت منفية فان كانت في كلام واحد فهي لنفي المقاربة . كما اذا قلت لايكاد البطال يفلح ، ولايكاد البخيل يسود ولايكاد الجبان يفرح ، ونحو ذلك .

وان كانت في كلامين اقتضت وقوع الفعل بعد ان لم يكن مقارباً فهذا التحقيق في امرها .

والمقصود ان قوله (لم يكد يراها) (١) اما ان يدل على انه لايقارب رؤيتها لشدة الظلمة وهو الاظهر ، فاذا كان لايقارب رؤيتها فكيف يرأها ؟

قال ذو الرمة :

اذا غير النأي المحبين ، لم يكد

رسيس (٢) الهوى من حب مية يبرح

أي لم يقارب البراح . وهو الزوال ، فكيف يزول ؟

يجدر بنا بعد ان عرضنا الاراء التي قيلت في كاد في النفي والاثبات أن نقول : ان الفعل كاد الموضوع في كلام العرب للمقاربة ، حكمه حكم سائر الافعال في الإ ثبات والنفي ، وهو ماذهب اليه اكثر النحاة ، فاذا قيل «كاد يرى» مثلا ، أفاد اثبات مقاربة الرؤية ، واذا قيل « لم يكد يرى» ،أفاد نفي ،مقاربة الرؤية ، ونفي كاد أبلغ من نفي الفعل الداخلة عليه لان نفي مقاربته يدل على نفيه بطريق برهاني .

والاية الكريمة ، تنفي مقاربة الرجل رؤية يده ، وقائع الرؤية هو شدة الظلمة ، فهي لم تكن اصلا ، ولاقاربت في الظن أن تكون ،ومحال ان يوجب نفي المقاربة وجود الفعل و لذلك لايتوجه السؤال . « فاذا كان لايقارب رؤيتها فكيف يراها ؟ »

---

(١) سورة النور آية ٢٤ .

(٢) الرسيس : الثابت الذي ازم مكانه .

وينطبق هذا التحقيق نفسه على بيت ذي الرمة ، ومعناه واضح جداً .. فان مراده فيه ان قديم هوى «مية» لم يقرب من الزوال في جميع ازمانه ، فهو قد نفى مقاربة زواله ، ونفي المقاربة يدل على نفي الفعل .

ونرى ابن قيم الجوزية ألا يطمئن كل الاطمئنان الى آراء بعض المفسرين أو النحويين في تناولهم بعض الآيات القرآنية . فلذا نراه يناقش الزمخشري وابن مالك في تخريج ، الاستثناء في الاية الكريمة (قل لايعلم من في السموات والارض الغيب الا الله ؟ (١)

قال قال الزمخشري : هو استثناء ، جاء على لغة تميم ، لان الله تعالى وان صح الأخبار عنه بأنه في السموات والارض . فانما ذلك على المجاز ، لانه مقدس عن الكون في المكان بخلاف غيره ، فان الأخبار عنه بأنه في السماء او في الارض ليس بمجاز (٢)

وقال ابن مالك (٣) : والصحيح عندي ان الاستثناء في الاية متصل . وفي متعلقه ، بفعل غير استقر من الافعال المنسوبة حقيقة الى الله تعالى والى المخلوقين كذكر ويذكر ونحوه ، فكأنه قيل : لايعلم من يذكر في السموات والارض الغيب الا الله ، ويجوز تعليق في باستقر الى مضاف حذف واقيم المضاف اليه مقامه ، والأصل لايعلم من استقر ذكره في السموات والارض الغيب الا الله ثم حذف الفعل والمضاف واستتر المضمر ، لكونه مرفوعاً . وهذا على تسليم امتناع ارادة الحقيقة والمجاز في احال ، وليس ممتنعاً لقولهم القلم احد اللسانين ، والخال احد الابوين وقوله تعالى (ان الله وملائكته يصلون على النبي) (٤) وقول النبي صلى الله عليه وسلم « الايدي ثلاثة يد الله ، ويد المعطي ، ويد السائل .

ويفصل ابن القيم القول في تعليقه ورده ، وتعليله على ماوراء هذا الاستثناء من معان دقيقة اذ يقول : « فهذا كلام هذين الفاضلين في هذه الآية ، وانت ترى مافيه من التكلف الظاهر الذي لاحاجة بالاية اليه ، بل الامر اوضح من ذلك . وخلاصة رأيه : —

١ — الصواب ان الاستثناء متصل . وقوله على لغة تميم : يريد ان من لغتهم ان الاستثناء المنقطع يجوز اتباعه كالمتصل ان صح الاستثناء به عن المستثنى منه ، وقد صح ههنا ، اذ يصح ان يقال : لايعلم الغيب الا الله .

---

(١) سورة النحل : رقم الآية ٦٥ .
(٢) ابن القيم الجوزية ، بدائع الفوائد ٦٢/٣ . وانظر أبا حيان البحر المحيط ٩١/٧ .
(٣) المصدران انفسهما .
(٤) سورة الأحزاب رقم الآية ٥٦ .

٢ – وليس في الآية استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ، لان من في السموات والأرض مهنا ابلغ صيغ العموم ، وليس المراد بها معينا فهي في قوة احد المنفي بقولك لايعلم احد الغيب الا الله ، واتى في هذا بذكر السموات والارض تحقيقاً لارادة العموم والاحاطة . فالكلام مؤد معنى لايعلم احد الغيب الا الله .

٣ – نشأ الوهم في ظنهم ان الظرف مهنا للتخصيص والتقييد ، وليس كذلك بل لتحقيق الاستغراق والاحاطة ، فهو نظير الصفة في قوله تعالى (ولاطائر يطير بجناحيه) (١) فانها ليست للتخصيص والتقييد بل لتحقيق الطيران المدلول عليه بطائر ، فكذلك قوله من في السموات والارض لتحقيق الاستغراق (المقصود بالنفي) ، ومن تأمل الاية علم انه لم يقصد بها الاذلك (٢) .

وان نظرة صادقة لتحكم من غير ترود بان ابن القيم كان مصيبا في رأيه ، كما انه لم يلجأ الى تأويل فيه ارهاق واعنات .

ثم هو لايقف عند ماقرره ووضحه في الاية الكريمة فحسب . بل نراه يتوسع في الرد والشرح فيقول : وقد قيل : انه لايمتنع أن يطلق عليه تعالى انه في السموات ، كما اطلقه على نفسه واطلق عليه رسوله ، قالوا ولا يلزم ان يكون هذا الاطلاق مجازاً ، بل منه الحقيقة التي تليق بجلاله ، ولايشابهه فيها شيء من مخلوقاته هذا كما يطلق عليه انه سميع بصير عليم قدير حي مريد حقيقة . ويطلق ذلك على خلقه حقيقة ، والحقيقة المختصة به لاتماثل الحقيقة التي لخلقه متناول الاطلاق بطريق الحقيقة لهما لايستلزم تماثلهما حتى يفرضه الى المجاز ، واما قوله ان الظرف متعلق بفعل غير استقر من الافعال المنسوبة الى الله والى المخلوقين حقيقة ، كذكر ويذكر الى آخره ، فيقال حذف عامل الظرف لايجوز إلا اذا كان كونا عاما ، او استقرارا عاما ، فاذا كان استقرارا او كوناً خاصاً مقيداً لم يجز حذفه ، وعلى هذا جاء مصرحا به في قوله تعالى (فلما رآه مستقراً عنده » (٣) لان المراد به الاستقرار الذي هو الثبات واللزوم لامطلق الحصول عنده ، فكيف يسوغ حذف عامل الظرف في موضع ليس بمعهود حذفه فيه ، وأبعد من هذا التقدير ماذكره في

---

(١) سورة الانعام رقم الآية ٣٨ .
(٢) ابن القيم الجوزية بدائع الفوائد ٣/٦٢ .
(٣) سورة النمل رقم الآية ٤٠ .

التقدير الثاني ان عامل الظرف استقرار مضاف الى ذكر محذوف استغنى به عن المضاف اليه والتقدير استقر ذكره ، فان هذا لانظير له ، وهو حذف لادليل عليه ، والمضاف يجوز ان يستغنى به عن المضاف اليه بشرطين ، ان يكون مذكوراً ، وان يكون في معلوم الوضع مدلولا عليه لئلا يلزم اللبس واما ادعاء اضافة شيء محذوف الى شيء محذوف ثم يضاف المضاف اليه الى شيء آخر محذوف من غير دلالة في اللفظ عليه . فهذا مما يصان عنه الكلام الفصيح ،فضلا عن كلام رب العالمين وأما قوله على انه لايمتنع ارادة الحقيقة والمجاز معاً ، واستدلاله على ذلك بقولهم : القلم احد اللسانين . فلا حاجة فيه لان اللسانين اسم مثنى فهو قائم مقام النطق باسمين ، اريد باحدهما الحقيقة وبالآخر المجاز ، وكذلك الحال احد الابوين، وكذلك الايدي ثلاثة ، واما قوله تعالى (ان الله وملائكته يصلون على النبي) (١) فالاستدلال به بعد هذا كله ، فان الصلاة على النبي من اله وملائكته حقيقة بلاريب والحقيقة المضافة الى الله من ذلك لاتماثل للحقيقة المضافة الى الملائكة ، كما اذا قيل الله ورسوله والمؤمنون يعلمون ان القرآن كلام الله ، لم يجز ان يقال ان هذا استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه وان كان العلم المضاف الى الله غير مماثل للعلم المضاف الى الرسول والمؤمنين فتأمل هذه النكتة البديعة . (٢)

ومن هنا نعلم ان تأويل الاية الكريمة على الوجه الذي اتى به ابن القيم الجوزية رائق معجب ، يدل دلالة واضحة على حصافة وتفطن ، وبصر بدقائق المعاني ومنازع الكلام وهو أجدى وخليق بالقبول وأولى بالاتباع عن غيره .

هذا وقد قلنا فيما سبق انه ذو بصر بدقائق المعاني ومنازع الكلام ، وان نحن نظرنا نظرة متأنية إلى تخريجه معنى (على) في قوله تعالى (صراط عليّ مستقيم) يظهر لنا ذلك بجلاء .

قال تعالى (صراط عليّ مستقيم) (٣)

قال : قال الحسن معناه (صراط إلى مستقيم) (٤)

---

(١) سورة الأحزاب ، رقم الآية ٥٦ .
(٢) ابن القيم الجوزية ، بدائع الفوائد ٣/٦٢ .
(٣) سورة الحجر ، رقم الآية ٤١ .
(٤) ابن القيم الجوزية ، التفسير القيم ص ١٥ ، ١٦ .

وقال مجاهد : الحق يرجع إلى الله ، وعليه طريقه ، لا يعرّج على شيء .

وقيل : (على) فيه للوجوب ، أي عليّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه .

وقال الكسائي : انه على التهديد والوعيد . نظير قوله تعالى (ان ربك لبالمرصاد) (١) كما يقال طريقك عليّ ، وممرك عليّ ، لمن تريد اعلامه بانه غير فائت لك ، ولا معجز (٢) نراه مورداً الآراء التي قيلت في هذه الآية ، مبيناً ما بين الآراء من اختلاف ، ثم يحتج لبعضها دون بعض ، محكماً عقله وذوقه ، فلتستمع اليه حين يقول :

وهذا يحتمل أمرين — يريد رأي الحسن — ان يكون اراد به ، انه من باب اقامة الأدوات بعضها مقام بعض ، فقامت اداة «على ، مقام «إلى» .

والثاني انه اراد التفسير على المعنى ، وهو الأشبه بطريق السلف اي صراط موصل الي .

وأما من فسره بالوجوب ، أي عليّ بيان الاستقامة والدلالة عليه . فالمعنى صحيح لكن في كونه هو المراد بالآية نظر لانه حذف في غير موضع الدلالة ولم يؤلف الحذف المذكور ، ليكون مدلولا عليه اذا حذف بخلاف عامل الظرف اذا وقع صفة ، فانه حذف مألوف معروف ، حتى انه لا يذكر البته .. فاذا قلت : له درهم عليّ كان الحذف معروفاً مألوفاً ، فلو أردت علي نقده ، أو علي وزنه وحفظه ، ونحو ذلك ، وحذفت ، لم يسغ ، وهو نظير : علي بيانه المقدر في الآية اما قول الكسائي : فالسياق يأبى هذا ولايناسبه لمن تأمله فانه قاله مجيبا لابليس الذي قال (لاغوينهم اجمعين الاعبادك المخلصين) (٣)

فانه لاسبيل لي إلى اغوائهم ولاطريق لي عليهم ، فقرر الله عزّ وجل ذلك أتم التقدير واخبر ان الاخلاص صراط عليه مستقيم . فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط ، لانه صراط عليّ ولا سبيل لأبليس إلى هذا الصراط ، ولا الحوم حول ساحته فانه محروس محفوظ لله فلا يصل عدو الله إلى اهله ، فلا يخفى الفرق بينهما سياقا

---

(١) سورة الفجر الآية ١٤ .

(٢) ابن القيم ية ، التفسير القيم ص ١٥ .

(٣) سورة الحجر ، قم الآية ٤٠ .

ودلالة ، فتأمله (١) وحين اطمأن به تقرير الدليل شرع في دفع توهم قد يجري في الخاطر ، بقوله : فان قيل : لو أريد هذا المعنى لكان الاليق به أداة « إلى» التي هي للانتهاء لا أداة « على» التي هي للوجوب : ألا ترى انه لما اراد الوصول ، قال : » (انّ الينا ايابهم ، ثم ان علينا حسابهم) (٢) وقال (الينا مرجعهم) (٣)،(ثم ان علينا حسابهم)(٤) و (انّ علينا جمعه وقرآنه) (٥) و (وما من دابة في الأرض الاعلى الله رزقها) (٦) ونظائر ذلك

قيل في أداة «على» سر لطيف . وهو الأشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى وهو حق . كما قال في حق المؤمنين(أولئك على هدى من ربهم) (٧) وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (فتوكل على الله انك على الحق المبين) (٨) والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق ، ودينه حق فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى . فكأن في اداة (على) على هذا المعنى ماليس في اداة « إلى» فتأمله ، فانه سر بديع

فان قلت : فما الفائدة في ذكر «على» في ذلك أيضاً . وكيف يكون المؤمن مستعليا على الحق ، وعلى الهدى ؟

قلت : لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى ، مع ثباته عليه ، واستقامته اليه ، فكأن في الأتيان باداة «على» مايدل على علوه وثبوته واستقامته وهذا بخلاف الضلال والريب ، فانه يؤتى فيه باداة «في» الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسسه فيه، لقوله تعالى (فهم في ريبهم يترددون) (٩) وقوله (الذين كذبوا باياتنا صم وبكم في

---

(١) ابن القيم الجوزية ، التفسير القيم ص ١٦ .
(٢) سورة الغاشية ، رقم الآية ٢٥ ، ٢٦ .
(٣) سورة يونس ، رقم الآية ٢٣ .
(٥) سورة الغاشية ، رقم الآية ٢٦ .
(٤) سورة القيامة ، رقم الآية ١٧ .
(٦) سورة هود ، رقم الآية ٦ .
(٧) سورة لقمان ، رقم الآية ٥ .
(٨) سورة النحل / رقم الآية ٧٩ .
(٩) سورة التوبة ، رقم الآية ٤٥ .

الظلمات) (٤) وقوله (فذرهم في غمرتهم حتى حين) (٥) ، وقوله « وانهم لفي شك منه مريب) (٣) وتأمل قوله تعالى .

(وانا واياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) (٤) ، فان طريق الحق تأخذ عاوا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير ،وطريق الضلال ، تأخذ سفلا ،هاوية بسالكها في أسفل سافلين .

ونحن نتقبل باعجاب شديد هذا الذي ذهب اليه ابن القيم ، وبه يستقيم معنى الآية الكريمة ، ويتجلى بمراعاته المعنى المقصود منها .

وبعد فهذه المامة عجلى ، ولمحة خاطفة ، ولو أردنا استقصاء آراء ابن القيم لأعوزنا وقت طويل ، ولكن حسبنا اننا اوردنا نماذج ترينا رصانة حسه اللغوي، وتفطينه إلى مادق وخفي من اسلوب القرآن ، وكأني به يهيب بقاريء القرآن ان يستكنه المعنى ، دون الأقتصار على اللفظ ، وان يغوص إلى اعماق الأعماق ، كما نلمس مدى حفاوته بالقرآن ، ومكانته في نفسه ومدى حرصه على فهمه له ، وذلك لايعرف فضل القرآن الاّ من أوتي حظا وافرا من تذوقه لأسلوبه .

---

(١) سورة الأنعام ، رقم الآية ٣٩ .
(٢) سورة المؤمنون ، رقم الآية ٥٤ .
(٣) سورة هود ، رقم الآية ١١٠ .
(٤) سورة سبأ ، رقم الآية ٢٤ .

المصادر والمراجع

١ — الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي ، طبع بمطبعة دائرة المعارف النظامية .حيدر آبـاد ١٣١٦ هـ .

٢ — البحر المحيط : لأبن حيان ، الطبعة الأولى .مطبعة السعادة .مصر ١٣٢٨ هـ .

٣ — بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي الطبعة الأولى. تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم .

٤ — بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ، نشردار الكتاب العربي .بيروت .لبنان .

٥ — التبيان في تفسير القرآن : للطبرسي ، المطبعة العلمية في النجف سنة ١٣٧٦هـ — ١٩٥٧ م .

٦ — تفسير أبي السعود :لأبي السعود العمادى ، مطبعة محمد علي صبيح واولاده .

٧ — التفسير القيم لابن قيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقي ، طبع لجنة التراث العربي. بيروت .لبنان .

٨ — التفسير الكبير : الرازي ، الطبعة الثانية .نشر دار الكتب العلمية .

٩ — تفسير الكشاف للزمخشري ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت .لبنان .

١٠ — الجامع لاحكام القرآن للقرطبي مصورة عن طبعة دار الكتب .نشر دار الكتاب العربي. القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ م .

١١ — دلائل الأعجاز لعبد القاهرة الجرجاني ، تعليق احمد مصطفى المراغي الطبعة الأولى .

١٢ — روح المعاني للألوسي ، الطبعة الأولى مطبعة بولاق ١٣٠١ .

١٣ — شرح الأشموني على الفية ابن مالك تحقيق وشرح محمد محيي الدين عبد الحميد الطبعة الثانية مطبعة الحلبي بمصر ١٣٥٨ هـ ، ١٩٣٩م.

١٤ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن عماد الجنابي ، طبع بيروت .

١٥ — اعراب القرآن ، النحاس مطبعة العاني .بغداد ، تحقيق الدكتور زهير غازي

١٦ — لسان العرب لابن منظور ، دار صادر .بيروت .

١٧ — المثل السائر لابن الأثير ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، مطبعة الحلبي ١٣٥٨ — هـ ١٩٣٩ .

١٨ — مجاز القرآن لابي عبيدة ، الطبعة الأولى ، نشر محمد سامي أمين الخابي ١٣٧٤هـ ١٩٥٤م .

١٩ — مجمع البيان في تفسير القرآن ، للطبرسي ، دار احياء التراث العربي تحقيق الحاج السيد هاشم .

٢٠ — المذكر والمؤنث لابي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت٣٢٨هـ) تحقيق الدكتور طارق عبد عون الجنابي . الطبعة الأولى ، مطبعة العاني / بغداد ١٩٧٨ .

٢١ — معاني القرآن للفراء ، تحقيق محمد علي النجار احمد نجاتي .مطبعة دار الكتب القاهرة — ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م .